المحاضرة العاشرة: نظريّة الانعكاس

1. تمهيد:

ظهر في القرن التاسع عشر أدب جديد أُطلق عليه الأدب الطبيعي الواقعي، وقد جاء هذا الأدب تماشياً مع التقدم العلمي والاقتصادي والاجتماعي... حاول رواد هذه النظرية ربط الأدب بالحياة والبيئة وغيرها من السياقات والعوامل المحيطة به، وشكلت نظرية الانعكاس الأساس النظري للمدرسة الواقعيّة.

2. أسسها الفلسفيّة:

الفلسفة الو اقعية المادية: قامت نظرية الانعكاس على الفلسفة الواقعية المادية التي ترى أنّ الوجود الاجتماعي أسبق في الظهور من الوعي، ما يؤدي إلى تشكل هذا الوعي وتأثّره بالوجود الاجتماعي، إلى جانب ذلك فإنّ الواقع المادي أو ما يُعرف بالبنية التحتية يؤثر في الوعي ويُساهم في تشكيله، هذا الوعي الذي يُصطلح عليه بالبنية الفوقيّة والذي يتمثل في الثقافة والفلسفة والفن... وكلّ تحوّل أو تطوّر في البنية التحتيّة سيؤدي حتماً إلى تحوّل في البنية الفوقيّة، دون إهمال دور وتأثير البنية الفوقيّة على البنية التحتيّة، فالتأثير لا يكون من جهة واحدة إنّما متبادلاً، مع أنّ لكلّ بنية استقلال نسبيّ يبقى التعالق سمة فيهما[1].

[1]. ينظر شكري عزيز الماضي، في نظرية الأدب، ط01، دار المنتخب العربي، بيروت، لبنان، 1993، ص83.

شكل كتاب (تاريخ الأدب الانجليزي) في مقدمته لـ **هيبوليت أودلف تين (Hippolyte Adolphe Taine)**[1] الصادر عام 1868 نقطة مهمّة في سياق هذه النظرية ومحاولة فارقة لقيت اهتمام كثير من النقاد والمفكرين[2]. يرى **تين** أنّ للأدب عوامل مؤثرة ثلاثة هي:

- **الجنس أو العرق:** والقصد منه لكلّ قوم خصائصهم ومميزاتهم وهذه الخصائص تؤثر في اختلاف آدابهم.
- **البيئة:** يتأثّر الأدب بالبيئة التي يتشكّل فيها كما يتأثّر الإنسان بالبيئة التي يعيش فيها.
- **الزمن:** للّحظة التاريخية وروح العصر دورٌ في تيمّز الأدب من فترة تاريخية إلى أخرى.

حاول **ليف نيكولايوفيش تولستوي (Lev Nicolaïevitch Tolstoï)**[3] في كتابه (ما الفن) أن يكون داعية إلى فن يُسعد الجماهير الفقيرة على وجه الخصوص؛ فقد آمن أنّ العلم والفن أداتان لتقدم الإنسانية. ورفض بشكل قاطع كلّ الفنون المرتبطة بالجوّ الأرستقراطي.

يرى **تولستوي** أنّ وظيفة الفن هي نقل انفعالات الفنان إلى المتلقين وخاصة البسطاء منهم وما لم يحقق ذلك لا يعتبر فناً.

---

[1]. هيبوليت أودلف تين (Hippolyte Adolphe Taine): مُنظر أدب وناقد ومؤرخ وفيلسوف فرنسي، ولد سنة 1828 وتوفي سنة 1893، أحد رواد النقد التاريخي وشخصيّة مؤثّرة في الدراسات الأدبية في اوروبا، لديه مجموعة من الأعمال التي أثّرت في المنظرين والنقاد في عصره وحتى بعده من هذه الأعمال: في العقل، تاريخ الأدب الانجليزي، فلاسفة فرنسا الكلاسيكيون في القرن التاسع عشر، اشتغل بالتدريس في أماكن مختلفة كان منها توليه تدريس تاريخ الفن والجمال بكليّة الفنون الجميلة، كما قدم مجموعة من المحاضرات في جامعات مختلفة من العالم، عُرف عنه الاجتهاد الدائم والتفاتي المتواصل في العمل والبحث والتأليف.

[2]. ينظر شكري عزيز الماضي، في نظرية الأدب، ص79.

[3]. ليف نيكولايوفيش تولستوي (Lev Nicolaïevitch Tolstoï): أديب ومفكر روسي، ولد سنة 1828 وتوفي 1910، أحد أعمدة الأدب الروسي وعلامة فارقة في الأدب العالمي، مُصلح وداعية سلام ومُحب للفقراء والبسطاء دائم الدفاع عليهم رغم انتمائه لعائلة من النبلاء الأثرياء، رغم حبه الكبير للمطالعة وثقافته الواسعة فشل في الحصول على شهادة جامعيّة بعد عدّة محاولات؛ حيث كان غير قادر على التركيز والانصياع للبرامج الجامعيّة، لديه مجموعة كبيرة من الأعمال الروائية والقصصيّة إلى جانب أعمال فلسفيّة وتنظيريّة منها: الحرب والسلام، أنا كارنينا، ما الفن.

3. أطروحاتها:

يتغير العالم ويتطوّر باستمرار وتتبدل فيه الحقائق والمعارف، فما يحيط بالذات دائم الحركة مستمر التغيّر لا يثبت على حال، ودور الذات فهم هذا العالم وإدراك التغيّر فيه، وعلى الذات أن تمتلك الأدوات اللاّزمة للفهم مع التأكيد على أنّ هذا الفهم يجب أن يحيط بالمعطيات والمتغيرات وخصوصيات كلّ مرحلة من مراحل التاريخ، فالمعرفة ليست ثابتة ولا سرمديّة ولا أزليّة[1].

يمتلك الواقع حقيقته الخاصة والموضوعيّة، ولهذه الحقيقة تأثير في الذات وانعكاس عليها، لكن هذا الانعكاس لا يكون سلبياً، فالذات لديها خصوصياتها ورؤاها وأحلامها، ما يجعل هذا الانعكاس يتميّز من ذات لأخرى[2]، "فالفنّ انعكاس، لكنه ليس انعكاساً سلبياً، بل هو إسهام في التعرّف على الواقع، وأداة للمّ شعثه، وسلاح لتغييره. فإذا غابت رؤية الفنان للحقيقة الموضوعيّة فقد عمله موضوعيته، وإذا غابت الذات فقد عمله فنيته، إنّ الواقع يبدو في الفنّ أكثر غنى من حقيقته الواقعة، لأنّ الفنّ لا يقف عند الواقع معطياته الخارجيّة المباشرة، إنّما يتخطى هذه المعطيات إلى إدراك جديد لها، فيبدو الواقع في صورة جديدة له: صورة فنيّة وهذه الصورة الفنيّة أكثر كمالاً م (أصلها)، لأنّها تُلم ما بدا مُبعثراً من عناصره، وتوضح ما بدا غامضاً من مغزاه"[3]. يتجاوز الفنّ الواقع وإن كان ينطلق منه، ويُضفي عليه الكمال والجمال ويُحرره من الصورة الحسية الجامدة.

---

[1]. ينظر عبد المنعم تليمة، مقدمة في نظريّة الأدب، ط03، دار العودة، بيروت، 1983، ص209.

[2]. ينظر المرجع نفسه، ص210.

[3]. المرجع نفسه، ص210.

تكمن فكرة الانعكاس في هذه النظرية أنّ أيّ تغيّر في البنية التحتية ينتج عنه تغيّر في البنية الفوقيّة ما يؤدي بالضرورة إلى تغيّر في الأشكال الأدبية ما يجعل من الأدب انعكاساً للواقع الاجتماعي.

ينقسم المجتمع إلى ثقافتين، ثقافة سائدة وهي ثقافة الطبقة المسيطرة وثقافة أخرى تبنيها الطبقات المقهورة؛ لهذا نجد أنّ للأدب بعداً طبقياً، أدب يدعوا للتصالح مع الواقع الاجتماعي وأدب آخر يدعوا إلى هدم العلاقات القائمة لبناء مجتمع أفضل، ما ينتج عنه انعكاس مزيّف وانعكاس صادق.

كلّما أوغل الأديب في تصوير العلاقات الاجتماعية من الداخل حقق لأدبه السمو والارتقاء، أمّا التصوير السطحي فيقلل من قيمة فنّه[1]، في السياق ذاته؛ يمتلك الأسلوب أو الشكل في العمل الأدبي دلالة اجتماعية كما أنّ مضمون العمل هو نتيجة للتفاعل بين ذات الأديب والظواهر الاجتماعية وما الأديب إلاّ فرد يعبّر عن جماعة.

عموما؛ تكمن وظيفة الأدب حسب -نظرية الانعكاس- في جعل المؤلّف قُراءَهُ يشاركون في تجربته إلى جانب تشكيل نوع من الانسجام الفكري والشعوري بين أفراد المجتمع.

[1]. ينظر شكري عزيز الماضي، في نظرية الأدب، ص86.